ابراهيم

باقـتـراب الميـلاد نقـتـرب من ابراهيم جـد المسيـح. انسـان من اور الكلدانيين اي من بـلاد ما بين النهرين السفلى وما كانوا يعبدون الله هناك. ولا يقـول سفر التكوين شيئـا عن عبادة اهله. القرآن يقـول ان اباه اتخـذ اصناما آلهة وهذا ما يـوافق الحضارة التي كانت سائدة في العـراق آنذاك. الله في القـرآن يتـدخل في شـأن الرجـل ويقـول: "نُري ابرهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين" (الانعام، ٧٥). غير ان الفضل الالهي عليه يمر بفكره اذ لما رأى الرجل كوكبا افل قال لا احب الآفلين. كذلك رفض عبادة القمر ثم رفض عبادة الشمس حتى صرح لقومه: "اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض".

لا يأتي سـفـر التكوين على هذا السـرد بل نرى الله ينـقض على الرجل انقضاضا بقوله له: "انطلق من ارضك وعشيرتك وبيت ابيك، الى الارض التي اريك" (تكوين ١٢:١). لا نعرف ان كان له شيء من متاع الدنيا كثير. لكن العراق كان خصبا والحضارة دائما غدت مترفة بين دجلة والفرات. يأمره الله ان ينصرف عما كان يحلو له ومن كان لهم عشيرا. يطلقه الى المجهول. غير انه في محطة اولى وقف في حاران. وفيها يبدو انه اقتنى بعض الاشياء. ولم يصر بدويا خالصا الا عندما ادرك فلسطين. "وبنى هناك مـذبحـا للرب ودعـا باسم الرب". كـان التبدي طريقه الى الله. الفقراء يتبيّنون ان الله حاجتهم.

رجل بلا فلسفة ظاهرة، بلا ملك وقد تخلى عن الاساطير التي كان يعرفها لما كان من المشركين. غير ان من عرف الله ينبغي ان يتخلى عن كل شيء آخر. وهنا توضح سورة التوبة انه اعتـبر اباه عـدو الله فتبرأ منه. ذلك ان ابراهيم تبتل لربه وقطع الصلة بينه وبين من عارض ربه. رجل لا يعـرف الا الله ولا يجيء إلاّ من كلمـاته. هذه الحـرية الداخلية الكاملة بلا نظام ديني موضوع هي ملة ابراهيم. النظام يبـدأ بموسى واما الايمان فبـإبراهيم وهذا ما جعله كما تقول سورة مريم صديقا نبيا. وينسب القرآن اليه انه هو سمى المؤمنين مسلمين. وكان هذا قبل بعثة محمد.

هذا هو الدين الخالص لله قبل ان تأتي الشرائع. "ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا" (النحل ١٢٠) والحنيف المنحرف قصداً من الشرك الى التوحيد كما يقول ابن كثير او مستقيما على الطاعة وطريق الحق وهو الاسلام كما جاء في مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي وهنا يأتي الاسلام بمعناه الاصلي السابق لرسالة محمد.

* * *

فـحـسب التـراث التـوحـيـدي لا نعـرف توحـيـدا قـبل ابراهيم ويجيء التوحيد وحيا ويتنزل في المؤمن رفضا للشرك وتطهيرا لصاحبه. هناك تمتمات عنه في اليـونان لكن اليونان لم يعرف الله خالقا وهناك لمحة في مصر لكن الشمس كانت فيها هي الاله الواحد في فترة قصيرة.

ولا يتحـقق التوحيد في المرء الا اذا كان نزولا من الله وصعودا الى الله كـمـا يقـول جـلال الدين الرومي. عند ذاك يتـوحـد المرء في ذاته وينبذ الفصام والتفكك الداخلي. اذ ذاك يرى نفسه مرآة الله. التوحيد الكبير يحصل اذا صار الحبيب والحبيب واحدا.

الخبرة التي عاشها ابراهيم خبرة صوفية، حقيقية بلا طريقة مسنونة. فالطرق تأتي من بعد شرع لاستدخاله القلب. لكن القلب في ابراهيم سبق الشريعة وتزكى بدونها ودليل ذلك ان ابراهيم بعدما كسر الملوك التقى ملكيصادق ملك اورشليم الذي كان كاهنا لله العلي – وهذا قبل ان يؤسس مـــوسى الكهنوت – وبارك ابراهيم الذي كـــان ابا الآباء واعطاه ابراهيم العـشـر من كل شيء وملكيـصـادق هذا كـان صـورة للمسيح. وادى له الله شهادة بقوله له: "انت كـاهن للابد على رتبة ملكيـصـادق". ويركـز صاحب الرسالة الى العـبـرانيين على ان المسيح بصـيـرورته كـاهنا على رتبـة ملكيـصـادق قـد تجـاوز الكهنوت اللاوي "فالشريعة لم تبلغ شيئا الى الكمال. وادخل رجاء افضل نتقرب به الى الله" (عبرانيين ١٩:٧). صورة ملكيصادق تكتمل بمن له كهنوت فريد بموته اعني المسيح. "فهو لذلك قادر على ان يخلص الذين يتقربون به الى الله خلاصا تاما لأنه حي دائما ابدا".

بهـذا الكلام لا يتـخـذ ابراهيم معناه الاخيـر الا بالمسيح. في سـفـر التكوين نفسه يتراءى لنا سر ابراهيم كاملا عندما يقول له الله: "خذ ابنك وحـيـدك الذي تحـبـه، اسحق، وامض الى ارض الموريا واصـعـده هناك محرقة" حتى يصل السرد الى ان الله قال له: "لا تمد يدك الى الصبي ولا تفعل به شيئا" حتى يقول الفكر المسيحي ان اسحق كان صورة عن المسيح. هذا انكشفت في موته محبة الله بيننا.

* * *

يتخذ ابراهيم مكانة كبرى في فكر بولس الرسول لما اخذ يعلم ان الانسان يبرَّر بالايمان بمعزل عن اعمال الشريعة واراد ان يقفز بذلك فوق موسى ويثبت ان بر الله يؤتاه الانسان بالايمان بيسوع المسيح. اذ ذاك يعـود بنا بولس الى التكوين ليـؤكـد في رسـالتـه الى اهل رومية ورسالته الى اهل غلاطية: "ان ابراهيم آمن بالله فحُسب له ذلك برا". وكـان هذا قـبـل ان يختن ابراهيم "فـأصـبح ابا لجـمـيع المؤمنين الذين في القلف، لكي ينسب اليهم البر، وابا لأهل الختـان الذين ليـسوا من اهل الختـان فحسب، بل يقتفون ايضا آثار الايمان الذي كـان عليـه أبونا ابراهيم وهو في القلف". آمن بوعـد الله انه سيرسل له ابنا وكان قد شارف المئة ورحم سارة قد ماتت ايضا. آمن على خـلاف كل رجـاء بشري. يبني بولس على هذا ليـقـول امـا نحن الذين نؤمن بيسوع فيحسب لنا ايماننا به برّاً ولا نحتاج الى ان نعبر بشريعة موسى.

ان تؤمن هو ان تجعل الله لك مأمناً وحصنا ومتكلا فتطيع الكلمة وتنجو بها. والله امين لكلمته ويجعلك انت امينا لها فلا تضطرب ولا يخامرك شك مهما تقلبت احوال الدنيا عليك. فقد تتعبك الدنيا كثيرا وتجعلك فقيرا وبلا نفوذ كما بات ابراهيم بلا نفوذ لما غادر اور. وكما تنكر للاصنام تتنكر انت للاصنام الجديدة التي يقيمها العالم حولك او يقيمها في خيالك وتقرع منه ابواب قلبك.

اجل لا بد لك ان تقلب مالاً وافكاراً وثقافات وان تعاشر من هو لك وتنتمي الى بلد وإلى شقائه. وقد لا تكون موفقا في عمل ولا سعيدا في بيتك وقد لا يعترف بك الاقربون. ولكن ان كنت حرا من كل شيء ومن ذاتك ومن آلهتك التي اصطنعتها لنفسك لتحتمي بها، ان كنت حرا حقا تكون ماشيا في حضرة الله وتعرف انك موجود في عينيه على الفـقـر الذي انت فيـه والعـزلة التي جعلوك فيـهـا. تعـدو في صـحـراء الوجود. غـيـر ان الرب رفيـقك في الصحراء، رفيـقك الى وجهـه وتقف عند وجهه فتحيا.

هذا هو الايمان الذي جـمّل ابراهيم وجـعله أباً لأمم كـثـيـرة اعني المؤمنين بالله بلا فـذلكة والبـاقين على العـراء. ثم يكتـشـفـون حـول نفوسهم سربالا من النور الالهي.

المطران جورج خضر